

الفصل التاسع

ممالك قابيل

حمل آدم وحواء الهم بسبب ابنيهما . اشتهر الابن الاكبر قابيل بأنه قاتل أخيه هابيل وكانت له صفة أخرى تميزه . كان هو الرأسمالي البدائي ، الذي ظهر بعد جيل واحد من الخروج من الجنة . يقول العهد القديم إنه كان أول من أقام حدوداً للحقول . وبفعلته هذه أرسى أول الحواجز بين شعوب العالم . فمنذ ذلك التاريخ تحكمت التخوم في المجتمع والتاريخ والجيئات .

لاشك أن الفكرة التي طرأت على ذهن قابيل قد خطرت بأذهان الفلاحين البدائيين . مع الزراعة ولدت فكرة امتلاك الأرض . يمكننا أن نشهد هذه العملية اليوم عندما يهجر الصائدون جامعو الثمار طريقتهم القديمة في الحياة . في أوائل هذا القرن تحول شعب الكيبيسيجي بكينيا ليحيا على زراعة الأذرة بإحدى المستوطنات . بسرعة ظهرت تفاوتات هائلة في الثروة نشأت عن نوعية الأرض التي حصل عليها كل . إذا ما كان المحصول ضعيفا مات الفقراء جوعا وازدادت سمنة الأغنياء . ازدادت المنافسة بين الذكور لجذب الاناث ، حتى ليتمكن القول إن ظهور الزراعة قد وسم بدء حملة جديدة في معركة الجنس . فمن كان يمتلك أفضل الأراضي إنتاجاً كان ينجب من النسل أكثر كثيرا ممن لا يمتلك . ربما كان لنفس هذا الاضطراب الاجتماعي أثره على الفلاحين بكل مكان . ربما نشأت الطبقات

الاجتماعية حقا مع الزراعة . فمن عهد ميسيني * وحتى شيلي القديمة كان ثمة فارق - نجده اليوم أيضا - فى الطول والصحة (يوضحه مدى تلف العظام فيما فحص من هياكل عظمية) بين الثرى الذى يدفن ومعه حليّه ، وبين الريفى الفقير الذى يدفن فى تواضع .

لا جدال فى أن الصراعات بين أوائل الفلاحين قد امتدت إلى المناقشات حول من يزرع ماذا وأين . لم يستغرق الأمر طويلا حتى وقعت الملكية بين أيدي قلة من الناس ، وحتى تطور المجتمع نحو نظام الدول المتنافسة الذى نشهده اليوم . فأيا كان نوع الحاجز الذى يمنع الشعوب من اللقاء والتزاوج - جبلا كان أو تخوما أو عجزا عن التفاهم - فإنه سيتسبب فى تباعدهم . هناك الآن على طول العالم وعرضه اختلافات وراثية تعكس ما كان بين المجتمعات القديمة من فواصل - حدود الحقوق !

أما الحواجز الناشئة عن السياسة فلم تتطور إلا مؤخرا . يقترح علم الوراثة أن ما نراه كتاريخ - نقصد الصراع بين الشعوب - هو أمر جد حديث . من العهد القديم وحتى كفاحي ، وجد المؤرخون المفتاح إلى شعوب العالم فى حركة الجماهير والفتوح العسكرية . لكن الأمم الغازية لم تبدأ فى تشكيل التاريخ الوراثي إلا فى الآلاف الأخيرة المعدودة من السنين . كانت الشعوب وحيثياتها تتحرك قبل ذلك بالانتشار التدريجي أو بالهجرة إلى أراضى فارغة ، لا بهزيمة دولة وانتصار الأخرى .

كانت المزارع فى الكثير من جهات العالم - ومنها وادى نهر الأردن - تقع قرب الأنهار فى مناطق مجدية . كانت مثل هذه الأنهار - ونهر النيل بالذات - تفيض ، تترك غريناً خصبا عند تراجعها . يزرع الفلاحون المعاصرون الأرض بعد أن تنحسر عنها مياه فيضان نهر السنغال . ويبلغ العائد على عملهم ١٥٠٠٠ ٪ ، نعى أن كل

عهد الإرتقاء السياسي بمدينة ميسيني اليونانية الذي امتد من ١٤٠٠ ق . م . إلى ١١٠٠ ق . م . (المترجم) .

كالورى من الشغل يذلونه يستعيدونه مائة وخمسين ، فى صورة غذاء . قارن هذا بعائد يبلغ نحو ٥٠ : ١ فى أكفأ حقول الأرز رياً . إن العائد من سهول الفيضان هائل ، لكننا لا نستطيع التنبؤ به - تماماً مثل سوق الأوراق المالية بهونج كونج . فهو فى بعض السنين ممتاز ، وفى البعض الآخر قد يكون كارثة . لقد رصد فيضان النيل منذ عام ٦٤١ قبل الميلاد وحتى اليوم . ولقد كان هناك بين الأعوام اختلاف فى مساحة الأرض التى تغمرها مياه الفيضان يصل إلى مائة ضعف .

ولقد نتج عن هذا فى سنغال اليوم نظام تميز طبقي صارم . لبعض العائلات حرية الوصول إلى سهول الفيضان حتى عندما تكون المساحة التى يغمرها الفيضان صغيرة ، أما البعض الآخر فلا يسمح لهم بزراعة المحاصيل إلا إذا ارتفع النهر لتغطى مياهه مساحات واسعة من الأرض - ليصبح عليهم فى سنى الجفاف أن يفتشوا عن الطعام فى مكان آخر : الأمر الذى كان يعنى فى الأزمنة القديمة العودة إلى أسلوب الصيد وجمع الثمار . ربما تطورت أقدم المجتمعات المتوطنة لمواجهة المخاطر لا لرفع كفاءة الفلاحة . إن المشاجرات الطائشة من أجل الحصول على أفضل الأراضى فى عام قحط ستكون خطرة ومكلفة . لقد نشأت المجتمعات كوسيلة لمواجهة المجهول .

منذ عشرة آلاف عام قام النطوف * - سلالة أول فلاحى وادى الأردن - ببناء قرى ذات بيوت خشبية . وفى خلال ألف عام ، وربما قبل ذلك ، كان ثمة الكثير من قرى أكبر فى العراق . ولم يتطلب الأمر أكثر من بضعة قرون كى تتقدم الحضارة للحد الذى تصبح فيه المستوطنات مطوقة بالحوائط والخنادق وأبراج المراقبة . بدأت الحرب تلعب دوراً ما أضاعته ! كان الفلاحون يدفعون خارج قراهم بسبب تدهور التربة وضغط الانفجار العددى . تحركوا فى العراق إلى السهول الحارة القفرة على مسافة من نهري دجلة والفرات . وبسرعة ظهرت أول دول المدينة : ربما

* شعب أقام حضارة بفلسطين وجنوب سوريا . كانت حضارة صائدين يجمعون غذاءهم بجمع بعض الحبوب البرية . عاشوا فى جماعات بالكهوف ، وإن كان البعض منهم قد سكن قرى بدائية (المترجم) .

بسبب الحاجة إلى التنظيم التي بدأت مع ابتكار الرى . وانقسمت البشرية لأول مرة بحواجز سياسية لا فيزيقية . توضح الأنماط الوراثية بالعالم الحديث أنه من ذلك التاريخ أصبح التعصب أحيانا عقبة فى سبيل تدفق الجينات ، مثلما الجغرافيا !

ساعدت التكنولوجيا الرأسماليين ، كما تساعدهم الآن لازالت . منذ ستة آلاف عام كان ثمة خيول ، فى سريندى ستوج بأوكرانيا ، ذات أسنان محطمة ، تقول إنها كانت تقاد بالشكيمة . وركوب الخيل يسرع الحركة ويساعد الناس على العمل سويا لسرقة موارد الآخرين . سنلاحظ قوة الحصان فى الغزو إذا نظرنا إلى نجاح بضع عشرات من الأسبان فى تخطيم امبراطوريتى الإنكا والأزتک ، أو نجاح المغول فى اجتياح المجر . بعد فترة قصيرة من ظهور الخيالة قامت حضارات شرق أوروبا ببناء الحوايط حول مدنها . وفى خلال بضع سنين انهارت مجتمعاتها .

وعلى عام ٣٦٠٠ قبل الميلاد كانت هناك مدن كبيرة فى مملكة ما بين النهرين . كان يقطن مدينة عروق عشرة آلاف نسمة ، ثم تزايد العدد إلى خمسة أمثاله خلال ألف عام . يرجع هذا التزايد إلى الحروب . لقد هجرت عشرات القرى وانتقل الناس إلى المدن الجديدة . كانت دول - المدينة السومرية هى أول الكيانات السياسية المنظمة فى التاريخ ، وقد نشأت بها الكتابة والمركبات ذات العجلات . كانت بها طبقاتها الكهنوتية والأرستقراطية ، وبالطبع ، جماهيرها المطحونة . عجل من زوالها سوء الإدارة . ومع تواصل الرى أصبحت التربة ملحية . وفى سننى سامراء الأخيرة انخفض انتاج المحاصيل إلى الثلث . وأخيرا سقطت أول الكيانات الدولية أمام أول الامبراطوريات ، امبراطورية الأكاديين ، التى هجمت من الشمال .

انتهت أيضا الكثير من المدن القديمة بسبب سوء التخطيط . فمدينة بيترا المهجورة بالأردن تحيطها اليوم أميال من الصحراء القاحلة . ولقد حفظت شواهد سقوطها بصورة طريفة . تعيش أرانب الصخر فى روابى تربية جماعية ، ولهذه الحيوانات عادة

شاذة هي أن تثبت بيوتها بالبول ، الذى يجف ليصبح مادة غروية لاصقة ، إن تكن كريمة . ولقد حفظت هذه المساكن البذور التى كانت تتغذى عليها هذه الأرانب . كانت بيترا فى قمة مجدها محاطة بغابات الأرز والصنوبر . أحرقت هذه الغابات لتحل محلها أراضى زراعية استغلت بكثافة . وفى غضون بضعة قرون تغلبت الصحراء . ولا شك أن سكان بيترا قد هجروها فى أيامها الأخيرة ، ومعهم جيناتهم .

من المؤسف أن أحدا لم يدرس أنماط جينات السكان الحاليين للعراق أو الأردن) فقد يكون البعض منهم السلان المباشرين للسومريين أو شعب بيترا) . فإذا تمت هذه الدراسة فقد تفصح الآثار الوراثية لهذه الوقائع التاريخية القديمة عن نفسها . لقد تركت مجتمعات قديمة أخرى - بل والفئات داخلها - آثارا بيولوجية بقيت حتى اليوم .

وبعد سقوط السومريين بوقت قصير ظهرت دولة - المدينة الاغريقية . كانت فلسفتها هي أساس علم السياسة المعاصر . وما الإلياذة والأوديسة إلا حكايات عن الحروب بين هذه الدول المدينة - وكان من بينها كورنيث واسبرطة وأثينا . ودخلت اليونان عهدها الكلاسيكى بعد نشوء هذه الدول بزمان قصير . ولقد كان هذا نصرا ، لا من الناحية الفنية فحسب وإنما أيضا من الناحية السياسية . فمنذ ثلاثة آلاف عام كانت اليونان هي أكثر دول أوروبا اكتظاظا بالسكان . انتشر شعبها المغامر ليشكل اليونان العظمى - ماجنا جريكا - امبراطورية تمتد من القوقاز إلى أسبانيا . كان ثمة أربعون مدينة يونانية فى جنوب إيطاليا ، من بينها سيراكوزا أكبر مدن العالم آنذ ، وسيباريس التى كان ثراؤها مضرب الأمثال .

كان لهذا التوسع آثار بيولوجية لا تزال موجودة . تبين أنماط مجاميع الدم والانزيمات أن أهالى جنوب إيطاليا وصقلية المعاصرين يختلفون وراثيا عن مواطنهم بالشمال ، وأنهم - بسبب تاريخهم - يشاركون شعب اليونان المعاصر فى الكثير من الجينات . تبقى جينات أولى الدول الأوروبية شاهدا على ماضيهم . يدين أهالى

سردينيا أيضا بتفردهم المميز ، لدولة - مدينة قديمة ، فهم يرتبطون كثيرا باللبنانيين المعاصرين ، الذين تحتل دولتهم اليوم موقع الأراضى الفينيقيّة - وكان الفينيقيون يوما أعظم تجار البحر المتوسط .

أما اليونانيون المعاصرون فهم من بقايا الماضى لا يزالون - على عكس السومريين والفينيقيين . فى نحو زمان الامبراطورية الاغريقية كان ثمة اقتصاد قادر آخر - الاقتصاد الإترورى الذى أصبح الآن مثالا للغموض . عاش هذا الشعب فى مدن يصل تعدادها إلى نصف مليون ، وكانوا متمرسين فى الصناعات المعدنية . كانت لهم شخصية أنثوية حاملة - كما يقول جيرانهم اللاتين . ربما كانوا أنثويين لكن امبراطوريتهم - ولفترة وجيزة - كانت تضم روما نفسها . ونحن لا نكاد نجد لها آثارا : القليل من التوسكانيات (وتشير إلى موطنهم) ، بعض من تماثيل مبهمة ذات ابتسامة إترورية ، وقليل من النقوش . وهناك شىء غريب آخر : كبد برونزى لشاة مغطى برسائل ، كان الرهبان يستخدمونه كوعاء تنزع به أحشاء الحمل الضحية . كانت بقايا الماضى هذه هى كل ما نعرفه حتى عهد قريب عن الأمة الإترورية .

لكننا نعرف الآن أن إرثهم لم يفقد . فبين نهري آرنو والتير - فيما يضم الآن أومبريا - توجد منطقة مميزة وراثيا عن جيرانها . إنها تحفظ لا زالت بعض الجينات الإترورية . لا يزال إرثهم البيولوجى باقيا فى سلالهم ، رغم اختفاء لغتهم وحضارتهم .

قد يكون الدين مثل القومية حاجزا فعلا يعيق حركة الجينات . دفع اليهود إلى الهجرة من شرقى المتوسط فى عام ٦٠٠ قبل الميلاد . تشتتوا بسرعة خلال أوروبا والشرق الأوسط . واستمر التشتت قرونا . ثم طرد اليهود من أسبانيا عام ١٤٩٢ وتحركوا جملة إلى تركيا . فإذا قارنا جينات المعاصرين من اليهود بغيرهم من نفس

الدولة (أو : جينات اليهود الأتراك بجينات الأسبان) فسجد العشيرة اليهودية بكل دولة محتفظة ببعض التميز الوراثي . صحيح أن الفروق صغيرة (فى حدود الموجود بين معظم العشائر ذات الأصل الأوروبى) لكن معظم الشعوب اليهودية تؤلف بسهولة جماعة مميزة . غير أن هناك استثناءات . ففي اليمن لا يمكن تمييز اليهودى من المسلم : ربما عكس هذا تاريخ تحول السكان المحليين إلى اليهودية . وبعض من تحول (يهود الفلاشا فى إثيوبيا مثلا) يختلفون وراثيا اختلافا واسعا ، بالرغم من أن ولاهم لليهودية ليس مجال شك . وهناك من التشابة بين اليهود وغير اليهود فى معظم أوروبا ، ما يكفى للقول بأن قد كان هناك تبادل للجينات منذ الدياسورا . فبالرغم من أن التقسيم الدينى كان بالتأكيد حاجزا ، إلا أنه لم يكن ممّا يستحيل اختراقه .

لقبائل اسرائيل قدرة لا محدودة على اجتذاب الأساطير . ثمة شعوب مختلفة تتصور أنها من القبائل الضالة (ومن ثم من سلالة الأنبياء) ، بل ولم يسلم حتى البريطانيون من هذا : فقد ظهر يوما الاسرائيليون البريطان (انقرضوا الآن) ، وقد تسلطت عليهم فكرة اثبات أن أصل العائلة المالكة قد ورد بالعهد القديم . وادعاءات البعض ممن يعلنون علاقتهم بالقبائل الضالة أفضل قليلا من غيرها . هناك شعب بجنوب أفريقيا (شعب اللمبا) له بشرة سوداء ، ولكنه يختلف عن جيرانه : فلهم أنوف معقوفة ، ويمارسون الختان ولا يأكلون لحم الخنزير ويؤدون صلاتهم بلغة غير مفهومة . يتصور شعب اللمبا أنهم إحدى قبائل اسرائيل الضالة . تبين جيناتهم أنهم أكثر شبها بشعوب الشرق الأوسط من غيرهم من شعوب جنوب أفريقيا ، ربما كانوا يحملون بعضا من الإرث الوراثي والحضارى للتجار العرب الذين كانوا يزورون هذه المنطقة من العالم منذ ألف عام . فإذا لم يكن هذا الشعب إسرائيليا ، فقد يمكنهم على الأقل إثبات أن لهم سلفا ساميا .

ثمة تحركات أخرى كثيرة قد تمت بالتجارة لا بالغزو . فالتجار كثيرا ما يتركون بطاقات زيارة وراثية . يمر طريق الحرير من شانجان - المدينة الصينية القديمة - إلى

البحر المتوسط . كان هذا الطريق ممرا تجارياً لفترة تزيد على الألف عام ، وكان فى معظم هذا الوقت شريانا رئيسيا للتبادل الحضارى . يمر الحرير من الشرق إلى الغرب ، ليرجع القطن والرمال والبوذية . لا تحمل الصين المعاصرة إلا القليل من التباينات الوراثية فى الهيموجلوبين (صبغة الدم الحمراء) الشائعة فى بقية العالم (أنظر ص ٣٩) . تفصح دماء الشعوب على طول طريق الحرير المعاصر عن آثار من جينات الهيموجلوبين متباينة نشأت حول البحر المتوسط وانتشرت مع التجار على طول هذا الدرب العتيق . ففي الطرف الغربى له بالصين يحمل فرد واحد من بين كل مائتين هيموجلوبينا شاذاً ، أما فى الطرف الشرقى البعيد فتتخفف هذه النسبة إلى أقل من واحد فى الألف .

هناك تشتتات أخرى نتجت عن التهجير القسرى . لقد حدث فى الماضى القريب ما يناظر الدياسبورا اليهودى . قام ستالين مثلاً بنقل الآلاف من الصين إلى أواسط آسيا . وتجرى الآن تحركات للأقليات عبر أوروبا الشرقية ، عقب انهيار النظم الشيوعية . ربما كان لبعض هذه الهجرات نتائج وراثية سيكتشفها أنثروبولوجيو المستقبل (وإن كان يبدو أن الاضطرابات القديمة ، فى البلقان على الأقل ، قد أدت بالفعل إلى قدر من المزج الوراثى أصبحت معه الحدود العرقية - برغم أنها من أسباب الصراع - لا تعكس أى تغير وراثى) .

يظهر كثيراً اتجاه لجمع شمل شعوب مزقتها التاريخ . هكذا وجدت إسرائيل بعد الشتات . بادل اليونانيون (الذين يمكن تعقب أسلافهم البعيدة إلى اليونان العظمى نفسها) بالأتراك الذين وجدوا أنفسهم معزولين فى اليونان المعاصرة . نقل المتحدثون باليونانية - وقد يحمل الكثيرون منهم جينات بيزنطية - من أماكن بعيدة قد تصل إلى القوقاز شرقاً . ومنذ الحرب العالمية الثانية كانت هناك حركة أقل وضوحاً قامت بها الحكومة الألمانية لاستعادة أقليتها المعزولة فى أوروبا الشرقية .

فى كل هذه الحالات ، كان بعض من الدافع نحو القومية هو الرغبة فى توحيد شعوب تشترك فى ثقافة شائعة . وكثيرا ما كان هذا الدافع يظهر فى التمسك باللغة ، الأمر الذى يفسر الضغوط التى تمارس على المهاجرين إلى اسرائيل لتعلم اللغة العبرية ، وعلى الألمان فى الشرق كى يستعملوا لغة أسلافهم . ولقد قالها الدكتور جونسون أيضا بطريقته الجميلة إن اللغات هى أصل الأمم . وقوة اللغة فى تحديد هوية الأمة وفى منع التزاوج مع الآخرين ، تظهر واضحة فى تشريعات كيليكينى * لعام ١٣٦٧ . ففى هذا التاريخ كانت إنجلترا قد سيطرت على تلك المنطقة من أيرلنده حول دبلن ، وكانت تسمى آنئذ البيل . كان كل ما وراءها يعتبر همجيا . انتبعت السلطات إلى تعدييات السكان المحليين التى وصلت إلى حد الزواج من المستوطنين الانجليز . وضعت إذن تشريعات تقول إن الكثير من الانجليز بالبلاد المذكورة قد تخلوا عن اللغة الانجليزية وأسلوب الحياة وطريقة ركوب الخيل والقوانين والأعراف ليعيشوا ويتصرفوا تبعا لطريقة أعدائنا الأيرلنديين ونظامهم ولغتهم ، بل ولقد عقدوا زيجات ومصاهرات سيئة السمعة مع الأعداء الأيرلنديين . الأمر الذى يؤدى بالبلاد المذكورة إلى خضوع وضعف اللغة الانجليزية والولاء الواجب لمولانا الملك والقانون الانجليزى ، ليقوى العدو الأيرلندى ويرفع من شأنه على نحو يخالف المنطق وعلى هذا فإذا استخدم أى انجليزى ، أو أيرلندى يعيش بين الانجليز ، اللغة الأيرلندية ، فلا بد من التعرف عليه ومصادرة أملاكه . لا تزال الحكومة الأيرلندية تكافح من أجل حماية اللغة الجيلية الأيرلندية التى توشك على الانقراض . وفى تسلط تاريخى غير مسبوق شمال الحدود ، ظل الحظر على استخدام أسماء الشوارع الجيلية ساريا حتى رفع عام ١٩٢٢ . لقد كانت محاولة استمرت ستمائة عام ، قامت بها أمتان تتقاسمان جزيرة صغيرة للإبقاء على الانعزال الاجتماعى بينهما باستخدام اللغة - وهى محاولة ، للغرابة ، قد استمرت لتموت أثناءها إحدى اللغتين .

* كيليكينى مقاطعة بجنوب شرق أيرلنده (المترجم) .

إن أى كيان يبقى منعزلاً عن أقرانه - لغةً كان أو مستودعَ جينات - قمين بأن يبدأ فى التطور بعيداً عنها . ثمة توازٍ بين عمليات التطور البيولوجى والعمليات التى تنشأ عنها لغات جديدة من لغةٍ أم . هناك على ما يبدو أكثر من مجرد تشابه بين التغير اللغوى والتغير البيولوجى . إن عوائق اللغة تبطئ من حركة الجينات ، والعوائق بين اللغات قد تسمّى خطوة وراثية . إن اشجار عائلات اللغات تشبه كثيراً الاشجار التى تبنى على الجينات المشتركة ، الأمر الذى قد يوحي بتاريخ مشترك بين اللغات والجينات .

هناك بالعالم أكثر من خمسة آلاف لغة ، ولقد انقرضت لغات أكثر - مثل الإنترورية . وكمثل الجينات ، تتطور اللغات لأنها تجمع الطفرات . بعض الكلمات يتغير بسرعة ، والبعض الآخر أكثر محافظة . وبالرغم مما زعم بالقرن الماضى من ادعاءات بأن الانجليزى بعد مائه عام لن يفهم الأمريكى ، فإن معظم اللغات تحتفظ بهويتها فترة تسمح بأن تكون ، كالجينات ، مفتاحاً للماضى ولتاريخ معوقات التزاوج .

تكون العوائق اللغوية فى بعض الأحيان أضال من أن نلاحظ . من الممكن أن نقسم انجلترا إلى مناطق يحددها ما إذا كان الناس ينطقون حرف الراء إذا جاء فى آخر الكلمة أو لا ينطقونه ، مثل كلمة كَار Car . أنا لا أنطقها . أنا أقول كَاه - لقد تربيت فى ويلز وفى ميرسيسايد ، لكن الكثيرين من أهالى كورنوال ولينكولنشاير، نورثامبريا (ومن الأمريكان) ينطقونها كَار . قد يبدو هذا أمراً تافهاً ، لولا أن مثل هذه الفروق البسيطة قد تتجمع حتى تصبح عائقاً يقف فى سبيل تبادل المعلومات ، فتولد لغة جديدة - بل وربما شعب جديد .

ونحن نلاحظ هذا فى كل مكان بأوروبا . هناك فى ايطاليا بضع لهجات محلية ، البعض من كلماتها يمكن تعقبه إلى أصله الاغريقى . واللهجات المحلية تعكس التاريخ أيضاً على النطاق الأوسع . لم يعد فى استطاعة الفلاح البرتغالى أن يفهم لغة

أهل البندقية بأكثر مما نفهمها نحن الانجليز ، لكنه يستطيع أن يتحدث الأسبانية مع جاره ، الذى يستطيع أن يتحدث مع ابن عمه من كاتالونيا ، الذى يرتبط بدوره بإيطاليا من خلال لغة دوك * بجنوب فرنسا . تعكس سلسلة اللهجات المحلية تاريخا من أسلاف مشتركة ترجع إلى الامبراطورية الرومانية وما قبلها .

تبين شجرة عائلة اللغات الأوروبية قرابة تربطها جميعا . تضم هذه المجموعة - عائلة اللغات الهندية الأوروبية - لغات هندية ، كالبنگالية ، ولغات منقرضة مثل السنسكريتية . وقد أدرك وجودها السير ويليام جونز عام ١٧٨٦ ، الذى لاحظ أن اللغات اليونانية واللاتينية والسنسكريتية كلها قد نشأت عن منبع واحد شائع لم يعد له وجود على ما يبدو . أما اللغات الفنلندية والمجرية والتركية والمالطية فتتنمى إلى شجرة لغات أخرى . لكن اللغة الأولى لنصف سكان العالم تنتمى إلى الشجرة الهندية الأوروبية .

تبين الخريطة السياسية لأوروبا المعاصرة كثيرا من الحواجز القوية . والخريطة المناظرة للغات تشبهها على وجه العموم . معظم الفرنسيين يتحدثون الفرنسية ، ومعظم الألمان يتحدثون الألمانية . واللغة دليل على التاريخ ، وهى دافع للتماسك القومى ، وهى أيضا معوق لحركة الشعوب . إنها تقلل من فرص الزواج ومن انتشار الجينات - ولقد فعلت ذلك للآلاف السنين . يحكى لنا الإنجيل عن مصير سجين من قبيلة إفرام الاسرائيلية أسرته قبيلة المناسة * : سأله رجال المناسة هل أنت من قبيلة إفرام ؟ فلما أجاب بالنفى طلبوا منه أن ينطق كلمة شيبوليت ، فنطقها شيبوليت - لم يكن فى مقدوره أن ينطقها النطق الصحيح . فأخذوه وذبحوه .

وتبين الخريطة الوراثية لأوروبا أن التخوم بين اللغات قد تكون مناطق تغير وراثى . هناك فى ويلز فروق وراثية بين الناطقين بالويلزية والناطقين بالانجليزية - وهذا واضح

* لغة d'oc تستخدم كلمة أوك مقابل كلمة نعم - فى مقابل اللغة الفرنسية أو لغة دوى التى تستخدم كلمة وى لتعنى نعم (المترجم) .

على وجه الخصوص فى المنطقة التى كانت تسمى بمبروكشاير ، والتى لا يزال يطلق عليها اسم المجلترا الصغيرة عبر ويلز لأن معظم ناسها يتحدثون الانجليزية . فى عام ١١٠٨ نقل الملك هنرى الأول إلى هناك من ضفاف نهر التويد جماعة من الحرفيين ليقوموا بصناعة النسيج . كان الموطن الجديد لمحدثى الانجليزية ينتهى بحدود واضحة تماما : اللاندسكير . ولقد ظلت هذه الحدود حتى قرن مضى مانعا للزواج ، فلم يحدث عبرها إلا زواج واحد من بين كل خمسمائة . وبعد ثمانمائة عام من هذه الهجرة كانت مجاميع الدم بسلان المهاجرين لا تزال تختلف عن مجاميع دم جيرانهم المتحدثين بالويلزية .

وبنفس الشكل سنجد أن عشيرة أوركنى - ولغتها المحلية لغة اسكندنافية - تختلف عموما عن بقية اسكتلنده . بل لقد تفصح اللهجات المحلية عن عوائق بيولوجية . ففي فرنسا هناك خطوة وراثية قصيرة بين من يتحدثون لغة الدوك (الفرنسية الجنوبية) وبين من يتحدثون لغة الدوى الشمالية . تحكى الجينات واللغات نفس القصة عن التاريخ .

لكن الانساق ليس دائما كاملا . كان للبلقان تاريخ صاحب من الحركة والغزو - مازالوا يحتفظون به - تاريخ حجب كل علاقة بين الوحدات اللغوية والوراثية . يتحدث المجرىون أيضا لغة مميزة تماما ، وإن كانوا - بيولوجيا - قريبين جدا من جيرانهم . فرض محاربو المجر من الشرق ، لغتهم على من أخضعوهم ، لكن أعدادهم كانت أقل من أن تؤثر كثيرا على جينات رعاياهم هؤلاء . وهناك فى بعض المناطق فروق وراثية داخل مجاميع تتحدث نفس اللغة . فشرق آيسلنده يختلف بعض الشيء وراثيا عن الغرب رغم عدم وجود اختلاف فى اللغة - وقد يكون هذا من آثار

* قبيلة المناسة هي واحدة من الاثنتى عشرة قبيلة التى شكلت الشعب اليهودي فى العصور القديمة . أطلق على عشر قبائل منها أسماء أبناء يعقوب ، أما القبيلتان الأخيرتان فقد أطلق عليهما إسما مناسا وإفرايم . حفيدي يعقوب إبنى يوسف (المترجم) .

تاريخ استيطان غرب أيسلنده ، فقد نزل به مهاجرون اسكندنافيين جلبوا معهم زوجات وخدم من أيرلنده .

تبدو لغة الباصك - مثل جيناتهم - مختلفة عن كل اللغات الأخرى . كتب الكاتب اللاتيني ميلا فى القرن الأول عن حيرته أمام أسماء شعوب وأنهار الباصك التى لا تعنى شيئا فى أية لغة يعرفها . وفرانسيس جالتون نفسه - الذى كان كثيرا ما يزور بلاد الباصك فى إجازاته - يتذكر الأسطورة التى تقول إن الشيطان نفسه قد جاء هنا فى زيارة ، فلما وجد بعد سنين ست أنه لم يستطع أن يتعلم اللغة ولا أن يجعل الباصك يفهمونه ، ترك البلاد يائسا . ربما اتضحت مشكلة الشيطان - التى يشاركه فيها الكثيرون - فى مثل باصكى نموذجى مستغلق يقول: أويناك زيوربيتزاتزين دو إسكوا ، إيتا إسكواك أويئا (ويعنى بالطبع : القدم تخدم اليد ، واليد تخدم القدم) . ربما كانت لغة الباصك هى آخر بقايا لغة أوروبا قبل الزراعة . أما اللغة الوحيدة التى تبدو الأقرب إليها فتحدث بها بعض الشعوب المنعزلة بالمنطقة التى كانت تسمى حتى عهد قريب جورجيا السوفيتية . يعتقد الكثير من الجورجيين أن لغتهم قد نقلت إلى بلاد الباصك عن طريق توبال حفيد نوح . ويجرى الآن البحث عن واحد من الباصك ليعتلى عرش جورجيا بعد أن استعيد .

قاوم الباصك - الآمنون فى جبالهم - أن يمتصهم الغزاة ، فعاشت لغتهم القديمة - لغة الصائدين جامعى الثمار . وجد هيكل الكرومانون نفسه فى منطقة من فرنسا كانت يوما وطن الباصك (كما يدل اسم الموقع الجغرافى) ، وليس من المستحيل أن تكون هناك رابطة لغوية ، بل وربما أيضا وراثية ، بين الكرومانون - وهو أحد قدامى الأوروبيين - وبين الباصك المعاصرين . ولقد أصبحت آخر بقايا اقتصاد الصيد الأوروبى مهددة اليوم بالفناء . تمتد جينات الباصك إلى أبعد بكثير من اللغة - شرق سيراكوزا ، التى أصبحت الآن مدينة أسبانية ، وإلى الشمال فى فرنسا . تحطّم اقتصادهم من زمان طويل . وربما قضى المجتمع الجديد على لغتهم (التى

كان يتحدث بها نصف مليون من البشر) وعلى حضارتهم . ومثل الإتروريين ، وكانوا يتحدثون أيضا لغة ليست هندية - أوروبية ، لن يتبقى منهم سوى جيناتهم .

هناك بالطبع حالات كثيرة تروى الجينات فيها لنا عن الأسلاف أكثر مما تروى اللغة . فالجينات تدوم أطول كثيرا وهي تخكى أكثر عن الماضي . نحن نرى هذا فى الإتروريين وفى الباصك ، ونراه - عبر فترة أقصر جدا - فى بريطان اليوم . لقد جاء أجدادهم من أوروبا وأفريقيا والهند ، بل وحتى من الصين ، ورغم ذلك فلغتهم الغالبة هى الإنجليزية . مستأكل مع الزمن - بلاشك - الروابط بين الجينات واللغات بفعل الكتب والأفلام والتلفزيون . لكننا لا نزال فى مرحلة من التاريخ بها من بقايا الماضي اللغوى ما يكفى كى نخمن كيف تطورت اللغة . والبعض من التخمينات يلمح عن البدايات الأولى للكلام ، بل وربما عن منشأ الانسان المعاصر نفسه .

من أين أتت اللغات الهندية الأوروبية ؟ إن أول لغة يمكن ادراكها من هذه المجموعة هى اللغة الحثية ، المكتوبة بالحروف المسمارية والتي كانت تستخدم فى تركيا منذ أربعة آلاف عام . واللغات الهندية الأوروبية الحديثة تنطق بمختلفة غاية الاختلاف . فمثلا : أبانا الذى فى السموات بالإنجليزية هى أورفادر ، هو آرت إن هيفين ، وبالويلزية آين تاد ، إرهن ويت إين إى نيفود ، وباليونانية بايترا ماس ، بو آيزاى ستوس أورانس ، وبالروسية أوتشى ناش ، سوتشى نانيبيزاش ، وبالهندي هى هامارى سفارجاست بيتا .

ورغم ذلك فمن الممكن أن نعر على كلمات شائعة واسعة الاستعمال يمكن استخدامها فى تخمين مكان نشأة اللغات . هناك مطلحات عديدة مشتركة عن الحيوانات الداجنة والمحاصيل . فالمصطلح الهندى الأوروبى القديم للغنم هو أوويس ، ومنها الكلمة اللاتينية أوفيس والسنسكريتية آفيس والإنجليزية يو . وكلمة بقره الإنجليزية كاو كانت كو ، وكلمة ماء الإنجليزية ووتر كانت يوتور . وهناك كلمات مشابهة للأذرة والنير والحصان والعجلة .

ربما كان أوائل الهنود الأوروبيين مزارعين حملوا معهم لغتهم عند انتشارهم . لا يتفق الجميع حول هذه الفكرة ، بل إن المنطقة التي عاشوا بها - نفسها - ليست مؤكدة . لاشك أن لغتهم قد ابتدأت قبل أن يحفظ أول سجل بزمان طويل . يعتقد بعض الأنثروبولوجيين أنهم يمثلون موجة غزو قام بها شعب الكورجان من استبس البونتيك ، شمال وشرق البحر الأسود . وهذه المنطقة تضم بلاد حضارة السردنى ستوج ، أول الفرسان ، وقد بدأ الغزو نحو ٤٥٠٠ قبل الميلاد - بعد بدء الزراعة بزمان طويل ، وأنهم جلبوا الزراعة معهم عندما هاجروا من آسيا الصغرى (التى تضم تركيا المعاصرة) قبل الكورجان بثلاثة آلاف عام . والواقع أن الشواهد الوراثية لا تحدد بوضوح إن كان منشأ الهنود الأوروبيين هو تركيا أم هو الاستبس . ربما بدأت بعض الشعوب (واللغات) الهندوأوروبية الشديدة التباين والتى تشكل الكثير من شعوب أوروبا المعاصرة ، ربما بدأت فى الانشعاب بعيدا عن بعضهم بعضا قبل بدء تحركهم من موطنهم نحو الشرق . لو كان هذا صحيحا فسيصعب أن نعرف أية أمة (ولغة) من الأمم المعاصرة ، كانت هى السلف الحقيقى للأوروبيين المعاصرين - إن كان ثمة أمة .

اللغة وعلم الآثار والجينات ، كلها تشهد بأن غزو أوروبا قد تم من الشرق . إن الرابطة التى نراها اليوم تربط بين حركة الزراعة والجينات واللغات وبين الأمم المتنافسة، نشهدها واضحة فى كل مكان آخر بالعالم الحديث . كثيرا ما تتحرك الزراعة إلى مناطق غير مأهولة ، أو قليلة السكان ، لا إلى اقتصاد صيدٍ مزدهر كأوروبا. أخذ مزارعو الأرز بالشرق الأقصى حول حوض اليانجتسى معهم لغتهم وجيناتهم عندما عمروا الباسيفيكي . ولقد كانت عائلة اللغات الأسترونيزية هذه يوماً هى الأوسع انتشارا ، وتمتد من مدغشقر إلى هاواى وجزيرة عيد الفصح . أما فى أفريقيا فقد انتشر الفلاحون نحو الجنوب ، ليعمروا المناطق الغربية والجنوبية من أفريقيا بالمتحدثين بلغة البنتو .

تتضمن أهم التقدمات التقنية اليوم - بدءاً من الكتاب المطبوع وحتى التلفون المتحرك - طرقاً جديدة للاتصال بين الناس . إن هذا هو ما يؤدي إلى تآكل دول - الأمم التي شكلت التاريخ منذ أيام المزارعين الأوائل . إننا نستطيع اليوم أن نتحدث مع أى شخص فى العالم حالما تمكّن من الحصول على تلفون . ربما اقترحت الأعمال الحديثة عن النظم الكرزنية للغات أيضاً أن أول اختراق اجتماعى كان يتضمن بعضاً من تكنولوجيا الاتصالات .

وأنماط التغير التي نمت من خلال الطفرات عبر المائة ألف عام الماضية ، يمكن أن تستخدم فى رسم شجرة العائلة لشعوب اليوم . يشكل الأفارقة غصنا واضح المعالم وقديما من الشجرة ، أما الهنود والأمريكان فيشكلون مع أسلافهم الأمريكيين واستراليا وغينيا الجديدة فرعاً منفصلاً . وفى إمكاننا أن نرسم شجرة عائلة للغات بنفس الأسلوب . يتعقّد الانجليز والألمان والبنغاليون سويًا فى عائلة هندأوروبية ، بينما يصنع الصينيون واليابانيون زمرة أخرى . وشجرة اللغة التي تتركز على بضع كلمات معدودة (مثلا : واحد ، اثنين ، ثلاثة أو رأس ، أذن ، عين أو أنف ، فم ، سنة ... الخ) تشبه كثيرا الأخرى المرتكزة على مفردات أكثر كثيرا . تستخدم مثل هذه القوائم المحدودة من الكلمات ونجاح كبير فى تصنيف اللغات الأقل انتشارا (كلغات أفريقيا أو العالم الجديد) .

ثمة ادعاء جديد مثير للجدل يقول إنه من الممكن بهذه الطريقة أن نصنف كل لغات العالم إلى سبع عشرة عائلة مختلفة لا أكثر . تقع كل لغات الأمريكتين الألف - أو نحو ذلك - فى ثلاث منها : الاسكيمو الأليوتية فى أقصى الشمال ، النادينية فى جنوب ألاسكا وكندا ، والأرندية لكل اللغات بجنوب باتاجونيا . والانتشار العريض لهذه العائلة المنفردة يقابله نمط بابوا غينيا الجديدة ، حيث سنجد نحو ٨٠٠ لغة فى منطقة مساحتها أقل كثيرا - والعديد منها لا يمت لغيره بأية صلة . ليس من قبيل المصادفة أن نجد نفس النمط فى وراثة متحدثى لغات الأمريكتين وبابوا غينيا الجديدة . فالأمريكيون أكثر تماثلا من الناحية الوراثية ، بينما

يختلف البابويون كثيرا من وادٍ إلى وادٍ . وبالقوقاز ، بين البحر الأسود وبحر كاسبيان ، سوجد أعلى تركيز لتنوع اللغات ، ففي منطقة تبلغ مساحتها ضعف مساحة بريطانيا هناك أربعون لغة مختلفة تماما ، البعض منها لا يستخدم إلا في قرية واحدة . بل وهناك بعض التلميحات عن وجود رابطة مع مجموعة ناديميه ومع لغة التبت . لكننا للأسف لا نعرف شيئا عن وراثة القوقاز .

نستطيع أن نرسم شجرة توضح العلاقات بين كل لغات العالم ، بل وأن نخمن - تخميننا متهورا - بعض الكلمات القاعدية في أساسها جميعا . حاول بعض اللغويين الروس إعادة تركيب اللغة النوستراتية - وهذه لغة عمرها اثني عشر ألف عام يعتقد أنها أصل اللغات الهندية الأوروبية وأقاربها - وتضم هذه العائلة الإليمو - درايفية المستخدمة في بعض مناطق الهند ، واللغات الألتية التي تضم التوركية والمغولية ، وزمرة من اللغات الأفروآسيوية تستخدم في النصف الشمالي من أفريقيا . أعاد هؤلاء اللغويون تركيب أكثر من ألف جذر من بينها مثلا كلمة تيك وتعني الإصبع ، وكلمة كوجنا وتعني الكلب . ولم يجدوا كلمات مشتركة في مجال الزراعة ، الأمر الذي قد يقترح أن هذه اللغة البدائية قد نشأت حقا في زمن سابق للزراعة .

ومن عجب أننا إذا وضعنا شجرة لغات العالم بجوار الشجرة الوراثية فسنلاحظ على الفور تشابها كبيرا ، فكلاهما قد نشأ في أفريقيا ، وكلاهما يبين نفس الانشقاق بين الأسترالازيا وغيرها من الشعوب الآسيوية . وربما أشار ذلك إلى أن تاريخ اللغة ذاتها يرجع إلى بداية البشرية . إن اللغة المنطوقة تسيب قفزة هائلة في سرعة نقل المعلومات . فلو أننا تهجينا هذه الجملة حرفا حرفاً فسنأخذ في نقلها إلى الآخرين عشرة أمثال وقت نطقها . إن مأساة الأصم والأبكم في المجتمع الحديث تبين مدى اعتماد حياتنا على القدرة على التكلم . يصعب أن نتخيل مجتمعا يسير بدونها . تبين عظام أوائل البشر المعاصرين أن قد كانت هناك تغيرات في شكل الجمجمة وفي موضع الحنجرة - ربما حددت أقدم المهارات على تشكيل صوت منطوق

بوضوح . إن هذا ، بالإضافة إلى التوافق بين جينات ولغات اليوم ، قد يقترح أن اللغة هي حقا ما جعل البشر بشرا .

ولقد شعر شيلي بنفس هذا : ففي روايته بروميثيوس طليقاً جعل البطل الاسطوري يمنح الرجال لغة الكلام ، لتخلق اللغة الفكر . قد لا نتفق جميعا معه في هذا . يقترح بعض الأنثروبولوجيين أن إنسان نيانديرثال نفسه كانت له لغة مصقولة اختفت تماما (كما يفترض) بانقراضه هو نفسه . ثمة تلميح عن فجر أقدم للغة . تقضى القردة العليا معظم وقتها ينظفون بعضهم بعضا ، كى تفصح للرفاق عن مدى الانتماء إلى الجماعة . لو ان قدامى البشر كانوا يطمثون رفاقهم مثلما تفعل القردة العليا ، فلربما كان عليهم (بالنظر إلى عدد أفراد جماعة الصيد) أن يقضوا نصف وقتهم يرعون بعضهم بعضا . إن الحديث - حتى ولو بلغة بدائية - هو طريقة أفضل كثيرا من اللمس فى تهدئة الرفيق . ولربما كانت أولى الكلمات هي كلمات ملاطفة - ظهرت قبل ظهور أسلاف اللغات المعاصرة بزمان طويل .

أبدا لن يتمكن أحد من أن يعيد تركيب لغة النيانديرثال أو يتحدثها - إذا كان ثمة لغة . كانت هناك ادعاءات كثيرة بالنسبة للغة جنة عدن . اقتنع بيكانوس - فيلسوف القرن السادس عشر الألماني - أنها كانت اللغة الألمانية القديمة ، وأن العهد القديم قد ترجم عنها إلى العبرية (وإن كان الامبراطور الرومانى المقدس تشارلس الخامس قد قال إنه يتحدث الفرنسية إلى الرجال ، والايطالية إلى النساء ، والأسبانية إلى الله ، والألمانية إلى الخيل !) . وربما أتاحت لنا الفرصة عما قريب للوصول إلى الحقيقة .